مـيرامـار

١

ميـرامــار

نجـيب محفـوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

دار الشــروق

-١-

عامر وجدى

الإسكندرية أخيراً.

الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع.

***

العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم، يستقر فى ذكراتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شىء فى لا مبالاة فلا يعرفك. كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة. وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس فى البحر الأبيض، يجلل جنباته النخيل وأشجار البلح، ثم يمتد طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق الصيد. والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتى النحيلة المقوسة، ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية.

ماريانا، عزيزتى ماريانا، أرجو أن تكونى بمعقلك التاريخى، كالظن والمأمول، وإلا فعلىّ وعلى دنياى السلام. لم يبق إلا القليل، والدنيا تتكرر فى صورة غريبة للعين الكليلة المظلمة بحاجب أبيض منجرد الشعر.

ها أنا أرجع إليك أخيرا يا إسكندرية.

* * *

ضغطت على جرس الشقة بالدور الرابع. فتحت شراعه الباب. فتحت شراعة الباب من وجه ماريانا. تغيرت كثيرا يا عزيزتى. ولم تعرفنى فى الطرقة المظلمة. أما بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبى فقد توهجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل.

ـ بنسيون ميرامار؟

ـ نعم يا فندم.

ـ أريد حجرة خالية.

الباب فتح. استقبلنى تمثال العذراء البرنزى. ثمة رائحة ما لعلى أفتقدها أحيانا. وقفنا نتبادل النظر. طويلة رشيقة، الشعر ذهبى، والصحة لا بأس بها، ولكن بأعلى الظهر احديداب، والشعر مصبوغ حتما، واليد المعروقة وتجاعيد زاويتى الفم تشى بالعجز والكبر. إنك يا عزيزتى فى الخامسة والستين رغم أن الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها. ولكن هل تتذكريننى؟

نظرت باهتمام تجارى بادئ الأمر ، ودقت النظر ، ثم اختلجت العينان الزرقاوان . ها أنت تتذكرين ، وها أنا أسترد وجودى الضائع .

ـ أوه . . أنت !

ـ مدام !

تصافحنا بحرارة ، غلبها النفعال فقهقهت ضاحكة . كنساء الأنفوشى قهقهت . وأطاحت بالوقار بضربة واحدة .

ـ يا خبر أبيض ، عامر بك ، أستاذ عامر ، ها . . ها . .

جلسنا على كنبة الأبنوس تحت العذراء وشبحنا يتخايلان فى زجاج صوان المكتب القائم للزينة .

نظرت فيما حولى وقلت :

ـ مدخل فيما حولى وقلت :

فقالت محتجة ، ملوحة بيدها بفخار :

ـ بلى تجدد وطلى مرات ، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو . .

ـ إنى سعيد يا مريانا ، الشكر لله على أنك فى صحة جيدة . .

ـ وأنت أيضا يا مسيو عامر ، ألمس الخشب . .

ـ عندى المصران الغليظ والبروستاتا ، نحمده على أى حال . .

ـ أتجئ بعد زوال الصيف؟

قلت باهتمام :

ـ بل جئت للإقامة ، متى تلاقينا آخر مرة؟

ـ منذ . . منذ . . أقلت للإقامة؟

ـ نعم يا عزيزتى، رأيتك آخر مرة منذ حوالى عشرين عاما . .

ـ واختفيت طيلة ذلك العمر !

ـ العمل، والهموم . .

ـ أراهن على أنك زرت الإسكندرية مرات ومرات فى تلك الأعوام . .

ـ أحيانا، ولكن وطأة العمل كانت شديدة، وأنت أدرى بالصحافة . .

ـ وأعرف أيضا جحود الرجال . .

ـ ماريانا يا عزيزة ، أنت أنت الإسكندرية . .

ـ تزوجت طبعا . .

ـ كلا بعد !

تساءلت مقهقهة :

ـ ومتى تتم النية وتقدم؟

قلت بنبرة لم تخل من امتعاض :

ـ لا زواج، لا أبناء، اعتزلت العمل، انتهيت يا ماريانا . .

شجعتنى بحركة من يدها فواصلت قائلا :

ـ عند ذاك نادتنى الإسكندرية، مسقط رأسى، ولما لم يكن لى فيها من قريب حى فقدقصدت الصديق الباقى لى فى دنياى.

ـ جميل أن يجد الإنسان صديقا يقاسمه وحدته.

ـ أتذكرين أيام زمان؟

قالت بصوت مأساوى :

ـ ذهبت بكل جميل.

ثم فى شبه غمغمة :

ـ ولكن علينا أن نعيش..

وجاء وقت الحساب والمساومة. قالت إنه لم يعد لها من مورد إلا البنسيون، ولذلك فهى ترحب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين، وفى سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدم الفنادق. رددت ذلك بحزن عزيز قوم ذل. واختارت لى الحجرة رقم ٦ فى الجناح البعيد عن البحر. واتفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف، على أن يكون لى حق الاستمرار فى الإقامة صيفا إذا دفعت أجرة المصيفين. تم الاتفاق على كل شىء بما فيه الفطور الإجبارى، وأثبتت المدام أنها تستطيع فى الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير. وسألتنى عن حقائبى فأجابت بأنها فى أمانات المحطة. فقالت ضاحكة :

ـ لم تكن متأكدا من وجود ماريانا .

ثم واصلت بحماس :

ـ لتكن إقامة دائمة .

فنظرت إلى يدى التى ذكرتنى بيد مومياء فى المتحف المصرى .

* * *

لا تقل حجرتى فى شىء عن الحجرات المطلة على البحر . مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم . ولتبق الكتب فى صندوقها إلا ما ندر مما قد أراجعه فيمكن وضعه فوق الترابيزة أو التسريحة . لا يعيبها شىء إلا أن جوها يسبح فى مغيب دائم لأنها تطل على منور كبير يتسلق على جدرانه سلم الخدم حيث تهر القطط ويتناجى العاملون . وزرت الحجرات كلها . الوردية والبنفسجية والسماوية وكانت جميعها خالية . فى كل أقمت صيفا أو أكثر فى زمن مضى . ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة والفنايير البلورية فما زالت مسحة أرستقراطية باهتة تعلق بالجدران المورقة والأسقف العالية الموشاة بصور الملائكة .

قالت وهى تتنهد وقد لمحت لأول مرة طاقم أسنانها :

ـ كان بنسيون الساده!

فقلت مواسيا :

ـ سبحان من له الدوام .

فعادت تقول وهى تلوى بوزها :

ـ أكثر النزلاء شتاء من الطلبة ، وأما فى الصيف فأستقبل كل من هب ودب .

* * *

ـ عامر بك ، كن شفيعى عند دولة الباشا .

وقلت للباشا :

ـ يا دولة الزعيم ، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنه فقد ابنه فى الجهاد وهو جدير بأن يرشح عن الدائرة .

وافق على اقتراحى أسكنه الله أعز مكان فى جنته . كان يحبنى ويتابع مقالاتى باهتمام صادق . ومرة قال لى :

ـ أنت كلب الأمة الخافك .

كان رحمة الله ينطق القاف كافا . وسمع بها بعض الزملاء القدامى منرجال الحزب الوطنى فكانوا كلما رأونى صاح صائحهم : «أهلا بكلب الأمة» .

لكنها كانت أيام المجد والجهاد والبطولة .

كان عامر وجدى شخصا فريدا ، له فى الرجاء جانب يرده الأصدقاء ، وفى الخوف جانب يتجنبه الأعداء .

* * *

فى الحجرة أتذكر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس . وفى المدخل

مجال سمر مع الراديو وماريانا . وإن شئت تنويعا فى التسلية ففى أسفل العارة مقهى الميرامار . من البعيد جدا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفنى ، ولا فى التريانون نفسه . ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم . وإنى لأعرفك يا إسكندرية الشتاء . تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة ، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر .

* * *

ـ ذلك العجوز الذى يخفى جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح .

وقال من عينه الزمن الهازل رئيسا للتحرير :

ـ زمن البلاغة ولى ، هل عندك عبارة تصلح لراكب طيارة ؟ !

راكب طيارة ! . أيها القره جوز المفعم شحما وغباء . . إنما خلق القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين المعربدين من ضحايا الملاهى والحانات . . ولكن قضى علينا طول العمر بالسير فى ركاب زملاء جدد فى المهنة ، لقنوا علمهم فى السيرك ثم اجتاحوا الصحافة ليلعبوا دور البهلوانات .

* * *

جلست على الفوتيل مرتديا الروب ، استسلمت ماريانا إلى مسند الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء ، وانبعث من المحطة الأفرنجية موسيقى راقصة . وددت أن أسمع لونا آخر ولكنى تجنبت إزعاجها . استرخت جفونها كن تحلم وحركت رأسها فى طرب كأيام زمان .

ـ كنا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتى .

ـ طول العمر .

ـ لم نتبادل العشق ولا مرة !

ضحكت ضحكة عالية وقالت :

ـ ذوقك بلدى ، لا تنكر . .

ـ عدا مرة عابرة ، هل تذكرين ؟

ضحكت طويلا ثم قالت :

ـ نعم جئت مرة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب فى اسجل «عامر وجدى وحرمه» .

ـ وسبب آخر أبعدنى عنك ، كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء . .

تهلل وجهها فى سعادة شاملة ، ماريانا ، مهم عندى جدا أن يمتد بك العمر بعدى ولو يوما واحد حتى لا أضطر إلى البحث عن مأوى جديد . ماريانا إنك شاهد حى على أن التاريخ ليس وهما ، من عهد الإمام إلى اليوم .

* * *

ـ سيدى الأستاذ ، أستودعك الله .

رمقنى فى ضجر ، وهو يضيق بى كلما رآنى . قلت :

ـ آن لى أن أعتزل

قال وهو يدارى ارتياحه :

ـ خسارة كبيرة ولكننى أرجو لك حياة طيبة .

انتهى كل شىء .

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال من عصر الطائرة . أيها الأنذال . أيها اللوطيون ألا كرامة لنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟ !

* * *

قلت وأنا أرنو إجليها تمت تمثال العذراء :

ـ ولا هيلانة فى زمانها !

ضحكت وقالت :

ـ قبل أن تجىء كنت أجلس وحدى ، لا أنتظر أحداً أعرفه . مهددة دائما بأزمة كلى .

ـ سلامتك ، ولكن أين أهلك؟

وهى تتنهد :

ـ هاجر النساء والرجال .

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت :

ـ قلت أين أذهب؟ لقد ولدت هنا لم أر أثينا أبدا فى حياتى ، ثم أن البنسيونات الصغيرة لن تؤم على أى حال .

* * *

يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مكان القانون. لا فض فوك. لقد أكرمك الله بتمثالين والموت.

* * *

ـ مصر وطنك والإسكندرية ليس كمثلها شىء

عزف الهواء فى الخارج. والظلام يهبط خلسة. قامت فأشعلت من النجفة ثلاثة مصابيح فى أسفلها مثل عنقود العنب. عادت إلى مجلسها وهى تقول:

ـ كنت سيدة، سيدة بكل معنى الكلمة.

ـ مازلت سيدة يا عزيزتى.

ـ هل تشرب كأيام زمان؟

ـ كأس واحدة عند العشاء، طعامى خفيف جدا، وذاك سر حيويتى رغم تقدم العمر.

آه يا مسيو عامر، تقول إن الإسكندرية ليس كمثلها شىء؟ كلا لم تعد كما كانت على أيامنا، الزبالة ترى الآن فى طرقاتها!

قلت بإشفاق:

ـ عزيزتى، كان لابد أن تعود إلى أهلها.

قالت بحدة:

ـ ولكننا نحن الذين خلقناها.

ـ عزيزتىماريانا ألا تشربين كأيام زمان؟

ـ كلا، ولا كأس واحدة، عندى ضغط من الكلى.

ما أجمل أن نوضع فى متحف جنبا إلى جنب، ولكن عدينى بألا تموتى قبلى:

ـ مسيو عامر، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول، أما اثورة الثانية فجردتنى من ماليوأهلى، ولماذا؟

ـ إنك مستورة والحمد لله، ونحن أهلك، والعالم يشهد أمثال هذه الحوادث كل شروق شمس.

ـ ياله من عالم!

ـ ألا نغير المحطة الإفرنجية؟

ـ عدا ليلة أم كلثوم فلا محطة غيرها!

ـ أمرك يا عزيزتى.

ـ خبرنى لماذا يعذب الناس بعضهم البعض، ولماذا يتقدم بنا العمر؟

ضحكت دون أن أنبس.

أجلت البصر فى الجدران المقوش عليها تاريخها. هناك صورة الكابتن بقبعته العالية وشاربه الغزير فى البدلة العسكرية، زوجها الأول، ولعله حبيبها الأول والأخير، الذى قتل فى ثورة ١٩١٩. فى الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمها العجوز، كانت

مدرسة . على مرمى البصر فى الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثانى ملك البطارخ وصاحب قصر الإبراهيمية ، أفلس ذات يوم فانتحر .

ـ متى فتحت البنسيون؟

ـ قل متى اضطررت لفتحه من فضلك!

ثم أجابت :

ـ عام ١٩٢٥ .

عام محنة وكدر . .

* * *

ـ ها أنا شبه سجين فى بيتى وعرائض التأييد تزف إلى الملك .

ـ زيف وكذب يا دولة الزعيم .

ـ حسبت الثورة قد طهرت النفوس من ضعفها .

ـ الجو سليم والحمد لله . . سأسمع دولتكم مقالة الغد .

* * *

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهى تقول :

ـ كنت سيدة يا مسيو عامر ، أحب الحياة الحلوة والنور والفخامة والأبهة والملابس والصالونات ، وكنت أهل على المدعوين كالشمس . .

ـ رأيت ذلك بعينى . .

ـ لكنك لم تر إلا صاحبة البنسيون .

ـ كانت تهل أيضا كالشمس . .

ـ وكـــان النزلاء من الســـادة ولكن لم يعـــزنى ذلك عن تدهورى . .

ـ مازلت سيدة بكل معنى الكلمة .

هزت رأسها ثم سألت :

ـ والأصدقاء القدامى ماذا حل بهم؟

ـ حل بهم المكتوب عليهم .

ـ لماذا لم تتزوج يا مسيو عامر؟

ـ سوء الحظ ، ليتنا أنجبنا ذرية .

ـ أوه . . كان كلا الزوجين عاقرا!

يغلب على الظن أنك أنت العـاقر ، إنه أمر مـؤسف إذ أننا لم نوجد إلا لكى ننجب .

* * *

ذلك البيت الكبير الذى تحول مع الأيام إلى فندق ، يراه السائر فى خان جعفر كقلعة صغيرة ، وحوشه القديم الذى شق فيه طريق إلى خـان الخليلى ، قـد نقش فى قلبى هو ومـا يكتنفـه من بيـوت قديمة والكلوب العتيق ، صورة تذكارية لنشوة الحب المشبوب

المرتطم بخيبة الأمل . العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان «لا» فتقضى فى تعصب أعمى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة .

ـ مولاى ، إنى أنشد القرب منكم على سنة الله ورسوله .

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمس ، فقلت :

ـ إنى صحفى ، ذو مال ، وابن شيخ كان خادما لمسجد سيدى أبى العباس المرسى .

قال :

ـ رحمه الله كان من التقاة المؤمنين .

وقبض على المسبحة ثم استطرد :

ـ يا بنى ، كنت منا ، جاورت الأزهر زمنا .

ذاك التاريخ متى ينسى ! . قال :

ـ ثم طردت من الأزهر ، أنت تذكر . . ؟

ـ مولاى ، ذلك تاريخ قد انقضى ، لأتفه الأسباب كان يحق الطرد ، شاب هزه الشباب فاشترك فى تخت مطرب ذات ليلة ، أو طرح بعض أسئلة ببراءة . .

قال بامتعاض :

ـ قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة .

ـ مولاى منذ يستطيع أن يقضى على إنسان بتهمة كالألحاد ، ولا مطلع على الفؤاد إلا الله؟

ـ يستطيع ذلك من يسترشد بالله .

اللعنة . منذا يزعن أنه عرف الإيمان . قد تجلى الله للأنبياء ونحن أحوج منهم إلى ذاك التجلى . وعندما نتحسس موضعنا فى البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار .

* * *

لنحذر الكسل . لا بأسمن تجربة المشى فى الصباح المشمس . ما أحلى أيام الدفء فى البالما والبجعة . ولو وجدت نفسك وحيدا بين أسر تعمر بالأجيال . الأب يطالع جريدة والأم تطرز رقعة والأبناء يلعبون . لو يخترع المخترعون للمعتزلين جهازا يبادلهم الحديث والسمر ، أو شخصا ألكترونيا يلاعبهم النرد ، أو يركب لهم عينا جديدة تولع مرة أخرى بنبات الأرض وألوان السماء .

وقد عشنا دهرا طويلا حافلا بالأحداث والأفكار ، نوينا أكثر من مرة أن نسجله فى مذكرات ـ كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق باشا ـ ولكن لم تصدق النية ثم تبددت بين إمهال وإرجاء . اليوم لم يبق من النية القديمة إلا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة واضمحلت القوة . ففى ذمة الله ذكريات الأزهر ، وصحبة الشيخ على محمود وزكريا أحمد وسيد درويش ، حزب الأمة ما أعجبنى فيه وما نفرنى منه ، الحزب الوطن بحماساته وحماقاته ، الوفد بثورته العالمية الخالدة ، الخلافات الحزبية التى قوقعتنى فى حياد بارد لا معنى له ، الإخوان الذين لم أحبهم ، الشيوعيون الذين لم أفهمهم ، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة ، غرامياتى وشارع محمد علىّ ،

موقفى العنيد من الزواج. لو قيض لذكرياتى أن تكتب لكانت عجبا حقا.

زرت بحنان أثنيوس وباستوريدس وأنطونيادس. جلستوقتا فى بهو وندسور وسيسل، ملتقى الباشوات والساسة والأجانب فى الزمن القديم، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث، فلم أر إلا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين. رجعت ولى عند الله دعاءان: دعاء بأن يمن على بحل مشكلة الإيمان، ودعاء بالأ يصيبنى بمرض يقعدنى عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدى.

* * *

ما أجمل هذه الصورة النابضة بالشباب. قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض، ومالت بجذعها نحو مسند المقعد ملقية معصميها عليه، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسما معتزا بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكى الفضفاضى عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر.

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحلى تأهبا لزيارة الطبيب، وجلست تنظر الوقت المناسب للذهاب. سألتها:

ـ أقلت إن الثورة قد جردتك من مالك؟

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت:

ـ ألم تسمع بكارثة الأسهم؟

لعلها قرأت فى عينى تساؤلا ففطنت إلى ما يدور بخلدى فقالت :

ـ ضاع ما ربحته أيام الحرب الثانية، صدقنى لقد ربحته بشجاعتى إذ أصررت على البقاء فى الإسكندرية عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة والأرياف خوفا من غارات الألمان، طليت النوافذ باللون الأزرق وأسدلت الستائر ، ودار الرقص على ضوء الشموع، ولن تجد من يضاهى ضباط الإمبراطورية فى البذل والكرم .

وجدتنى وحيدا بعد ذهابها انظر إلى عينى زوجها الأول وينظر إلى . ترى من قتلك وبأى سلاح؟ . وكم من جيلنا قتلت قبل أن تقتل؟ . جيلنا العتيد الذى فاق الأجيال جميعا فى غزارة ضحاياه .

* * *

الغناء الأفرنجى لا ينقطع . أقسى ما حكم الزمان به علىّ فى عزلتى ماريانا أخذت حماما ساخنا عقب عودتها من عند الطبيب، هاهى تجلس ملفوفة فى برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه عشرات المشابك المعدنية البيضاء . خفضت صوت الراديو إلى حد الهمس لتبدأ هى ذاعتها وقالت :

ـ مسيو عامر . . لا شك أن لديك مالا وفيرا؟

فسألتها بشىء من الحذر :

ـ هل عندك مشروعات؟

ـ كلا ، ولكن فى مثل عمرك ـ وعمرى أيضا مع الفارق الكبير ـ لا يتهددنا شىء مثل الفقر والمرض .

قلت والحذر لم يفارقنى بعد :

ـ لقد عشت مستورا وأرجو أن أموت مستورا .

ـ لا أذكر أنك كنت مسرفا قط .

ترددت قليلا ثم قلت :

ـ أرجو أن يكون عمر المدخر من نقودى أطول من عمرى . . لوحت بيدها باستهانة وقالت :

ـ الطبيب شجعنى هذه المرة فوعدته بألا أحمل هما .

ـ جميل ألا نحمل هما .

ـ يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتى ليلة رأس السنة .

قلت ضاحكا :

ـ نعم ، على قدر ما تسمح قلوبنا .

راحت تهز رأسها فى تلذذ وتقول فى مناجاة :

ـ يا ليالى رأس السنة . .

فقلت منفعلا بذكريات بعيدة :

ـ كم أحبك الكبراء !

ـ لم أعرفالحب إلا مرة واحدة . .

ثم أشارت إلى صورة الكابتن . وعادت تقول :

ـ قتله طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم!

ثم قالت بخيلاء :

ـ كان بنسيون السادة! . . يعمل به طاه ومرمطون وسفرجي وغسالة وخادمان، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسالة أسبوعية!

ـ كبراء كثيرون يغبطونك عى ما أنت فيه .

ـ أهذا على أى حال طبيعى يا مدام .

اربد وجهها فضحكت متوددا وملاطفا .

* * *

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

مضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى منذ كنت فى الأزهر . كنت غائصا فى مقعهد كبير طارحا قدمى على وسادة . هطل المطر بغزارة فارتفع رنينه فوق درجاتالسلم المعدنى فى المنور .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ .

ثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الحجرة فى البنسيون .

رفـعت رأسى عـن الكتـاب وأنصت . ضـيف أم نـزيل جـديد؟ . صـوت ماريانا يرحب بحرارة لا تليق إلا بصـديق حـميم . وثمـة ضحك أيضا . ثم وضحت نبـرة غليظة من صـوت أجوف . ترى من القادم . الوقت بعد العصر بقليل . والمطر ينهل بشدة ، والغيوم تريق فى الحجرة ظلمة كالليل . ضغطت على زر الأباجورة حين لمع برق خاطف نضج به الشيش ، وهزهم الرعد .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ .

* * *

يميل إلى القصر والبدانة ، منتفخ الشدقينواللغد ، وله عينان زرقاوان رغم سمرة بشرته ، ذو طابع أرستقراطى لا تخطئه العين وينم عنه صمته المتكبر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتزنة المرسومة بدقة إذا تكلم . قدمته المدام باسم «طلبة بك مرزوق» فى مجلس المساء ، ثم قالت تزيدنى معرفة به :

ـ كان وكيلا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار .

لم يكن عندى فى حاجة إلى تعريف . عرفته من بعيد بحكم مهنتى على عهد النضال السياسى والحزبى . كان من المنتمين إلى أحزاب السراى وبطبيعة الحال من أعداء الوفد . وتذكرت أيضا أنه وضع تحت الحراسة منذ عام أو أكثر وأنه جرد من موارده عدا القدر المعلوم . أما المدام فقد تبدت فى أحسن أحوالها مرحا وعاطفية ، نوهت مرارا بصداقتها القديمة لطلبة بك . وبرز حماسها المتدفق عندما دعته بمحبها القديم .

وقال لى الرجل ونحن نتبادل الحديث :

ـ قرأت لك كثيرا فيما مضى . .

فضحكت ضحكة ذات مغزى فضحك بدوره قائلا :

ـ كنت تعطينى مثلاحيا لقوة البلاغة عندما تتصدى للدفاع عن باطل !

وضحك طويلا ولكننى لم أجادله . وقالت المدام تخاطبنى بشماتة :

ـ طلبة بك تلميذ قديم للجزويت ، سنسمع الأغانى الأفرنجية معا ونتركك لتتعذب وحدك . .

ثم بسطت راحتها فى ترحيب وقالت :

ـ جاء ليقيم معنا . .

فرحبت به فعادت تقول فى رثاء :

ـ كان يملك ألف فدان ، كان يلعب بالمال لعبا . .

هنا قال الرجل بامتعاض :

ـ انقضى عهد اللعب . .

ـ وأين كريمتك يا طلبة بك؟

ـ فى الكويت مع زوجها المقاول .

وكنت أعلم أن الحراسة قد فرضت عليه لشبهة تهريب بيد أنه فسر مأساته قائلا :

ـ خسرت أموالى جميعا ثمنا لنكتة عابرة!

فسألته :

ـ هل دعيت إلى تحقيق؟

فقال بازدراء :

ـ المسألة بكل بساطة أنهم كانوا فى حاجة إلى مالى . .

وكنت المرأة تنظر إليه بإمعان فقالت :

ـ تغيرت كثيرا يا طلبة بك .

ابتسم فوه الصغير المطوق بشدقيه ثم قال :

ـ أصابتنى جلطة كادت تقضى على . .

ثم بشىء من العزاء :

ـ ولكننى أستطيع أن أشرب الويسكى فى حدود الاعتدال .

* * *

غمس الكروسان فى الشاى الممزوج باللبن ثم أكل بأناة من لم يألف الطاقم الجديد بعد . لم يكن على مائدة الإفطار سوانا وكانت الأيام القلائل الماضية قد قربت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأنس بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية ، وإن انطوى كل منا فى أعماقه على مزاج متفرد مناقض لصاحبه : ولكن تجئ أوقات يبرز فيها المزاج الثاوى فى الأعماق ليثير الغبار والتحديات . أجل قد سألنى بلا مناسبة :

ـ أتدرى ما السبب وراء المصائب التى حلت بنا؟

فتساءلت بدهشة :

ـ أى مصائب تعنى؟

ـ أيها الثعلب، إنك تعرف تماما ما أعنى .

ـ ولكن لم تحل بى المصائب من أى نوع كان . .

رفع حاجبيه الأشيبين وقال :

ـ لقد اغتيلت شعبيتكم كما اغتيلت أموالنا . .

ـ لعلك تذكر أننى خرجت من الوفد، بل من الأحزاب جميعا، منذ حادث ٤ فبراير . .

ـ ولو . . ثمة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كله . .

فقلت زاهدا فى الجدل :

ـ بصرف النظر عن موقفى فإنى مشوق إلى معرفة رأيك . .

قال بهدوء وازدراء :

ـ يوجد سبب بعيد فى طرف الحبل المشدود حول أعناقنا، شخص لا يكاد يذكره أحد . .

ـ من هو؟

ـ سعد زغلول!

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدة :

ـ أجل، منذ دأب على إثارة الإحن بين الناس، والتطاول على الملك، وتملق الجماهير، رمى فى الأرض ببذرة خبيثة، مازلت تنمو وتتضخم كسرطان لا علاج له حتى قضى علينا . .

* * *

لم يكن بالبالما إلا آحاد مضى طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه الساكن فى ترعة المحمودية على حين مددت ساقى واستلقيت على مسند الكرسى كأنما أضطجع تحت شعاع الشمس النقى الدافئ. هاجرنا إلى أطراف الإسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام، فأوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات . .

مهما يكن من غلو صاحبى وعصبيته فهو يستحق قدرا من الرثاء. عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستين. إنه يغبط كريمته فى مهجرها ويرى أحلاما غريبة، لايطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية. ويؤمن بأن الاعتداء عليماله إنما كان اعتداء على كونه الله وسننه وحكمته.

ـ كدت أعدل عن الإقامة فى البنسيون عندما علمت بوجودك . .

لم أصدق وسألته عن السبب :

ـ وقع اختيارى على بنسيون ميرامار بأمل ألا أجد فيه إلا صاحبته الخواجاية.

فسألته عما بدد سوء ظنه بى :

ـ فكرت، ثم اقتنعت بأن التاريخ لم يعرف عميلا فوق الثمانين!

ضحكت طويلا ثم سألته:

ـ ولم تخاف العملاء؟

ـ لا شيء فى الحقيقة غير أنى أروح عن نفسى أحيانا بالكلام.

ثم واصل حديثه بعصبية:

ـ لم يعد لى مقام فى الريف، وجو القاهرة يصر على إشعارى بهوانى. عند ذاك فكرت فى عشيقتى القديمة، وقلت لقدفقدت زوجها فى ثورة ومالها فى الثورة الأخرى، وإذن فسوف نعزف لحنا واحدا.

وأثنى على صحتى رغم طعونى فى السن وجعل يغرينى على مصاحبته فى دور السينما والمقاهى الشتوية. ثم تساءل:

ـ لماذا عدل الله عن سياسة القوة؟

لم أدرك مرماه قال متبسطا فى الشرح:

ـ أعنى الطوفان والرياح وغيرها.

فسألته بدورى:

ـ أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة هيروشيما؟

فلوح بيده ساخطا وقال:

ـ ردد دعايات الشيوعيين أيها الغلب؟ إن أكبر خطأ فى حق البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا فى الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية!

ـ خبرنى هل تجدد غرامياتك مع ماريانا؟

ضحك عاليا وقال:

ـ يا لها من فكرة جنونية، إنى شيخ هدمه العمر والسياسة وهيهات أن تحركنى إلا المعجزات، وأما هى فلم يبق لها من الأنوثة إلا ألوانها المجردة..

وضحك مرة أخرى ثم قال:

ـ وأنت هل نسيت تاريخك؟ لقد قرأت عن فضائحك فى مجلة الكشكول، عن جريك وراء الملاءات اللف بشارع محمد على..

شحكت بلا تعليق فتساءل:

ـ هل رجعت أخيرا إلى الدين؟

ـ وأنت؟.. يخيل إلى أحيانا أنك لا تؤمن بشىء؟

فقال بحنق:

ـ كيف لا أومن بالله وأنا أحترق فى جحيمه؟!

* * *

ـ لقد خلق أمثالك للجحيم، لن يبارك الله لك فى شىء،

اخرج مطرودا من هذا المكان الطاهر ، كما طرد إبليس من رحمة الله .

* * *

دقت الساعة الكبيرة فى الصالة معلنة انتصاف الليل . تجاوبت أركان المنور بصفير هواء قوى . أقعدنى الكسل والدفء وأنا غائص فى المقعد الكبير عن القيام إلى الفراش . وثقلت عليوحدتى بعد أن انفردت بى فى الحجرة الخالية فقلت لنفسى ما جدوى الندم بعد الثانين .

وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبته قائلا :

ـ معذرة ، أدركت من ضوء الحجرة أنك لم تنم .

نظرت نحوه باستغراب . لقد شرب الليلة أكثر مما يشرب عادة . وسألنى متهكما وحركات رأسه تواكب نبرته :

ـ أتعلم كم كان يكلفنى فى الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والروائح والدهون وخلافة ؟ !

انتظرت أن يتكلم ولكنه أغمض عينيه كأن الجهد أرهقه ، ثم تراجع فأغلق الباب ومضى .

* * *

السرادق مكتظ بالخلق ، ساحة المولد كيوم الحشر ، والصواريخ تنطلق فى الفضاء . انشق النور وانعدم الظلام لمولد أحمد .

وتهادت الرولزرويس حتى وقفت أمام السرادق . هبط منها طلبة مرزوق فخف لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشية . طريقة الرجل الذى جمع فى قلبه بين الرسول والمندوب السامى . ولمحنى صاحب الرولزرويس فأعرض عنى فى كبرياء . وقيل ليلتها إنك جئت ثملا كما جئتنى الليلة . ودعى سيد المطربين إلى وسط السرادق فأنشد «ياسماء ما عليك سماء» . وفى الهزيع الأخير من الليل غنى «أحب اشوفك» فأطاح بعقول المريدين . متى كانت تلك الليلة العجيبة؟ . على التحديد لا أذكر ولكنها تما سبقت وفاة الرجل الجليل وإلا ما صفا لى الطرب .

* * *

كنت أجلس فى المدخل ولا أحد معى فى البنسيون عندما دق الجرس . فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامى وجها انشرح لمرآه صدرى . من النظرة الأولى انشرح له صدرى . وجه أسمر لفلاحة مطوقة الرأس ولوجه بطرحة سوداء : أصيلة الملامح مؤثرة جدا بنظرة علينيها الحلوة الترقبة :

ـ من أنت؟

ـ أنا زهرة!

قالتها ببراءة وثقة كأنما تنطق باسم علم من الأعلام . سألتها وأنا أبتسم :

ـ ماذا تريدين يا زهرة؟

ـ الست ماريانا .

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة. نظرت فيما حولها ثم سألت:

ـ أين الست؟

ـ ستجىء بعد قليل، اجلسى.

جلست على مقعد واضحعة البقجة على حجرها فعدت إلى مجلسى فى نشاط جديد. جعلت أنظر إليها، إلى تكوينها القوى الرشيق، وملاحتها الفائقة، وشبابها الغض، وأنا فى غاية من الارتياح.

واستسلمت لرغبة فى محادثتها فقلت:

ـ قلت إن اسمك زهرة؟

ـ زهرة سلامة.

ـ من أين يا زهرة؟

ـ من الزيادية بحيرة.

ـ عليميعاد مع المدام؟

ـ لا..

ـ إذن؟

ـ جئت لأقابلها.

ـ تعرفك طبعا؟

ـ نعم .

تمليت جمالها وشبابها بارتياح لم أشعر بمثله من دهر ثم عدت أسألها :

ـ هل تعيشين فى الإسكندرية ولكن زرتها مرارا مع المرحوم أبى .

ـ وكيف عرفت المدام؟

ـ كان أبى يحيئها بالجبن والزبد والسمن والدجاج ، وكنت أجئ معه أحيانا .

ـ فهمت ، تنوين يا زهرة أن تحلى محل أبيك .

ـ لا . .

حولت عينيها إلى البارفان كأنما لتتفادى من المزيد فاحترمت سرها وازددت لها حبا . وبكل حنان دعوت لها فى سرى أن يحفظها الله .

* * *

قلت وأنا أقبل يدها المعروفة المدبوغة «ببركة دعواتك أصبحت رجلا ولا كل الرجال ، هلمى معى إلى القاهرة» فقالت وهى تتطلع نحوى بحنان : «فليزدك الله من خيره وبركاته ، أما أنا فلن أغادر البيت ، إنه حياتى وعمرى» .

بيت نحيل ، مقشر الجدران ، تلطمه الرياح وتستقر أملاح البحر على أحجاره ، وتلفحه روائح السمك المكدس على شاطئ الأنفوشى .

قلت : «لكنك تعيشين نا وحدك» .

فقالت : «معى خالق الليل والنهار» .

* * *

دق الجرس فقامت زهرة ففتحت الباب . نظرت إليها المدام بدهشة ثم هتفت :

ـ زهرة! . . غيرمعقول . .

لثمت الفتاة يدها مشرقة الوجه لحرارة الترحيب .

ـ جميل أو أراك ، الله يرحم والدك ، تزوجت يا زهرة .

ـ كلا .

ـ غير معقول!

وضحكت عاليا ثم التفتت إلى قائلة :

ـ زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر . .

ومضتا معا إلى الداخل حين جاش صدرى بحنان وأبوة .

* * *

ولما جمعنا مجلس الليل ـ أنا وطلبة وماريانا ـ قالتالمدام :

ـ أخيرا ارتحت .

وسكتت لحظة ثم واصلت :

ـ زهرة ستعمل عندى .

اجتاحنى إحساس غريب بالفرح والضيق معا ثم سألت :

ـ أجاءت لتعمل خادمة؟

ـ نعم، لم لا ، ستكون على أى حال فى مركز ممتاز .

ـ ولكن ما . .

ـ كانت تستأجر نصف فدان وتزرعه بنفسها ، ما رأيك فى ذلك؟

ـ جميل ولكن لم تركت أرضها؟

نظرت إلى مليا ثم قالت :

ـ لقد هربت .

ـ هربت !

قال طلبة ساخرا :

ـ اعتبروها إقطاعية !

ـ أراد جدها أن يزوجها من عجوز مثله لتخدمه ، والباقى معروف . .

قلت بحزن :

ـ حدث خطير لا تهضمه القرية .

ـ لا أحد لها بعد جدها إلا شقيقتها الكبرى وزوجها . .

ـ وإذا عرفوا أنها هنا؟

ـ محتمل ولكن ماذا يهم؟

ـ ألا تخشين . .

ـ ليست صغيرة، وما فعلت إلا أننى آويتها وأعطيت لها عملا شريفا . .

ثم بإصرار :

ـ مسيو عامر . لن أتخلى عنها . .

* * *

لن أتخلى عن واجبى مادام فىّ عرق ينبض، ولتفعل بنا القوة ما تشاء .

* * *

وراحت تعلمها وزهرة تتعلم بسرعة فائقة وماريانا تقول بسرور :

ـ البنت مدهشة يا عامر بك، مدهشة، ذكيةوقوية، من مرةواحدة تعرف المطلوب، أنا بختى عال .

وقالت لى فى مرة أخرى :

ـ ما رأيك، خمسة جنيهات غير الأكل واللبس .

أعلنت ارتياحى ثم قلت برجاء :

ـ لا تلبسيها بطريقة عصرية !

ـ أتريدها أن تلبس كالفلاحات؟

ـ عزيزتى ، البنت جميلة ، فكرى فى الأمر .

ـ أنا عينى مفتوحة دائما . ، والبنت طيبة يا مسيو عامر .

هكذا خطرت زهرة فى فستان من الكستور فصل على جسمها الرشيق ليبرز محاسنه، ربما لأول مرة، بعد طول اختفاء تحت الجلباب الفضفاض المسترسل حتى الكعبين ، ومشط شعرها جيدا بعد أن غسل بالجاز ثم فرق فى وسط الدماغ ليجتمع فى ضفيرتين انسابتا فى امتلاء وراء الأذنين .

ورآها طلبة مرزوق فنظر إليها متفرسا ثم مال نحوى بعد ذهابها وهمس قائلا :

ـ سنشاهدها فى الصيف القادم فى الجنفواز أو مونت كارلو .

فقلت باستياء :

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ !

ثم مر بها وهو فى طريقه إلى الخارج فسألها مداعبا :

ـ هل فيك عرق أجنبى يا زهرة؟

شيعته بنظرة متسائلة . واضح أنها لن تستلطفه . ونظرت نحوى فقلت لها :

ـ إنه يداعبك ، فاعتبرى قوله نوعا من الثناء . .

ثم قلت باسما :

ـ وأنا أيضا من عشاقك يا زهرة . .

فابتسمت ابتسامة صافية فلم أشك فى أنها تبادلنى مودة بمودة وسررت بذلك جدا . وكانت المدام تدعوها ـ بعد انتهاء العمل ـ للجلوس معنا فى المدخل حول الراديو ، فكانت تختار مقعدا بعيدا بعض الشىء عنا وعلى كثب من البارفان وتتابع أحاديثنا برغبة جادة فى الاستطلاع والفهم ، واستأنستها بمودتى فصرنا صديقين ، وتبادلنا الكلام كثيرا فى الفرص المتاحة .

وقصت علينا ذات ليلة قصتها بنفسها وهى تظن أننا نسمعها لأول مرة . ثم قالت تعليقا على بعض ظروفها :

ـ أراد زوج أختى أن يأكلنى فزرعت أرضى بنفسى !

ـ ألم يشق عليك ذلك يا زهرة؟

ـ كلا ، إنى قوية بحمد الله ، لم يغلبنى أحد فى المعاملة ، لا فى الحقل ولا فى السوق

فقال طلبة مرزوق ضاحكا :

ـ ولكن الرجال يهتمون بأمور أخرى أيضا؟

فقالت بتحد لطيف :

ـ أكون رجلا عند الضرورة . .

فآمنت على قولها بحماس . وقالت المدام :

ـ زهرة ليست غشيمة ، كانت تصحب أباها فى جولاته ، كان يحبها جدا . .

فقالت بحزن :

ـ وكنت أحبه أكثر من عيني، أما جدى فلا يفكر إلا فى الانتفاع من ورائى . .

ولكن طلبة عاد إلى معاكستها قائلا :

ـ لو كان باستطاعتك أن تكونى رجلا فلم اضطررت إلى الهرب؟

فقلت مدفعا عنها :

ـ يا طلبة بك، أنت أدى بجو القرى، وقداسة الأجداد، والتقاليد الرهيبة، كان عليها أن تبقى لتصير زوجة زائفة أو أن تهرب . .

رمقتنى بامتنان، ثم قالت بأسف :

ـ تركت أرضى . .

وإذا بطلبة يقول :

ـ سيقولون إنك هربت لكيت وكيت . .

حدجته بنظرة غاضبة، واكفهر وجهها كأنما اتخذ من ماء الفيضان بشرة جديدة، وفردت سبابتها والوسطى وهى تقول بخشونة :

ـ أغرزهما فى عين من يقول علىّ بالباطل . .

هتفت المدام :

ـ زهرة ألا تفرقين بين الجد والدعابة؟

وقلت بدورى ملاطفا وقد أخذت بغضبتها :

ـ إنه يداعبك يا زهرة . .

وملت نحوه متسائلا :

ـ أين لباقتك يا عزيزى؟

فأجابنى باستهانة :

ـ موضوعة تحت الحراسة !

* * *

عيناها عسليتان، وجنتاها دسمتان موردتان، فى ذقنها غمازة . بالكاد حفيدتى الصغرى، أما جدتها المحتملة فقد مرت فى لمح البصر . لم يدركها حب ولا زواج . المستحيل تذكر ملامحها . بيرجوان والدرب الأحمر وسيدى أبو السعود طبيب الجراح .

* * *

ـ حتى متى تبقى هنا يا سيدى؟

كانت تجيئنى فى حجرتى بقوة العصر فأستبقيها حتى أفرغ رغبة فى حديثها .

ـ إنى مقيم هنا يا زهرة .

ـ وأسرتك؟

قلت ضاحكا :

ـ لا أحد لى فى الدنيا سواك .

فضحكت من أعاق قلبها من مرح . يدها صغيرة صلبة خشنة الأنامل . قدماها مفلطحتان كبيرتان . أما الجسم والوجه فسبحان الله العظيم .

ومرة همست لى :

ـ إنه ثقيل الدم !

قلت لها مستعطفا :

ـ إنه رجل كبير سيىء الحظ ، وبه مرض . .

ـ يظن نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات .

وقع قولها من أذنى موقعا غريبا فدار رأسى فى دائرة سحرية قطرها قرن كامل .

* * *

ـ يأبون زيارة وزير الحقانية لأنه أفندى . .

ـ يا دولة الزعيم ، لرجل القضاء مهابتهم !

ـ إنى فلاح قبل كل شىء أما هم فشراكسة . .

ثم ماضيا فى تصميم :

ـ اسمع ، طالما عيرونى بالغوغاء ففاخرتهم بأننى زعيم الرعاع

ذوى الجلاليب الزرق، اسمع . لابد أن تتم الزيارة . . وبكل احترام . .

* * *

حتى أنواع الويسكى حفظت أسماءها وهى تبتاعها من بقالة الهاى لايف . وكانت تقول لى :

ـ كلما طلبتها رمقتنى الأبصار وضحكت الوجوه . .

فرددت فى نفسى «ليحفظك الله» .

* * *

يا لها من ضوضاء . الأصوات ليست بالغريبة ولكنها تصرخ محتدمة . ماذا يجرى خارج الغرفة؟ . عادت الفراش والساعة تدق الخامسة مساء . تلفعت بالروب ومضيت إلى الخارج . لمحت طلبة وهو يختفى فى حجرته ضاربا كفا على كف . رأيت زهرة جالسة مقطبة وشبه باكية مقوسة الظهر والمدام واقفة أمامها فى غاية من الكدر . ماذا هناك؟ . قالت المدام لما رأتنى .

ـ زهرة سيئة الظن جدا يا عامر بك!

تشجعت زهرة بخضورى فقالت بخشونة :

ـ أراد أن أدلكه!

بادرتها المدام :

ـ إنك لا تفهمين، إنه مريض، كلنا نعلم ذلك، فى حاجة إلى

تدليك، كان يسافر كل سنة إلى أوروبا، ومادامت لا تريدين فلن يرغمك أحمد . .

قالت زهرة بحدة :

ـ لم أسمع عن ذلك من قبل، دخلت حجرته بنية سليمة فرأيته منطرحا على وجهه شبه عار!

ـ كفى يا زهرة، الرجل كبير، أكبر من والدك، ليس إلا سوء تفاهم، قومى فاغسلى وجهك وانسى الأمر كله . .

جلسنا على كنبة من الآبنوس وحدنا. الهواء يصرخ فى الخارج والنوافذ تصطك. غشانا صمت ثقيل مرهق فقالت المدام :

ـ هو الذى طلب، وأنا لا أشك فى نيته . .

تمتمت بلهجة ذات معنى :

ـ ماريانا!

تساءلت بحدة :

ـ أتشك فى نيته؟

ـ العبث لا حدود له!

ـ لكنه شيخ كما تعلم؟

ـ وللشيوخ عبثهم أيضا!

ـ قلت إنها أولى بالنقود من أخرى غريبة!

ـ إنها فلاحة . .

ثم ذكرتها قائلا :

ـ وقد وضعتها فى حماك !

* * *

وجاء طلبة فاتخذ مجلسه فى بساطة البرىء وانطلاقته . وراح يقول :

ـ الفلاح يعيش فلاحا ويموت فلاحا . .

فقلت بضيق :

ـ دعها تعيش وتموت على ما فطرها الله عليه . .

قال بامتعاض :

ـ قطة متوحشة ، لا يغرك منظرها فى الفستان ، وجاكته المدام الرمادية ، إنها قطة متوحشة . .

إنى حزين من أجلك يا زهرة . أدرك الآن مدى وحدتك .

وليس البنسيون بالمكان المناسب لك . والمدام ـ حاميتك ـ لن تتورع عند أول فرصة عن اتهام براءتك . .

وتساءل طلبة مرزوق بعد الكأس الأولى قائلا :

ـ منذا يحدثنى عن حكمة الله فى خلقه؟

فهتفت ماريانا مرحبة بتغيير مجرى الحديث :

ـ حاسب أن تكفر يا طلبة بك!

فأشار إلى تمثال العذراء وسأل:

ـ خبريني يا سيدتي لماذا رضي الله بأن يصلب ابنه؟

فقالت بجد:

ـ لولا ذلك لحلت بنا اللعنة!

فضحك طويلا ثم قال:

ـ ألم تحل بنا اللعنة بعد؟

وكان يسترق إلى النظر وأنا أتجاهله حتى لكزني بكوعه وهو يقول:

ـ أيها الثعلب، عليك أن تصالحني مع زهرة..

* * *

نزيل جديد؟

شيء في وجهه الأسمر الواضح الملامح يشي بأنه فلاح معتدل القامة في غير امتلاء سمرته أميل إلى العمق، له نظرة قوية، في الثلاثين من عمره. دعته المدام إلى مقعد من مائدة الإفطار وهي تقول:

ـ ميسو سرحان البحيري.

ثم قدمتنا إليه، وطلبت منه أن يزيدنا تعريفا بنفسه إن شاء فقال بصوت قوي ذي طعم ريفي متمدن:

ـ وكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل .

وعقب خروجه ضحكت المدام معلنة عن سرورها وقالت :

ـ نزيل مقيم أيضا وبنفس الشروط !

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاء حسنى علام للإقامة أيضا : وهو شاب يصغر سرحان بقليل ، ربعة أبيض اللون ، ذو بنيان متين يليق بمصارع ، وقالت المدام إنه من أعيان طنطا .

وأخيراً جاء منصور باهى مذيع بمحطة الإسكندرية ، فى الخامسة والعشرين ، وقد أثر فىّ وجهه الرقيق وقسماته الصغيرة الجميلة ، أجل فيه شىء من الطفولة ولا أقول الأنوثة ولكن بدا من أول الأمر أنه يعيش فى ذاته عسير الألفة .

إذن قد شمل العمران الحجرات جميعا وطارت المدام من الفرح ، وتوثب قلبى للترحيب والتعارف ولإشباع عواطفه المتعطشة . وقلت للمدام :

ـ شاب مرح جميل فلعلهم لايزهدون فى مجلسنا العجوز !

فقالت بسرور :

ـ وليسوا طلبة على أى حال .

لم يتجاوز التعارف حدوده الرسمية ، حتى اقتربت الليلة الأولى لموسم أم كلثوم فعلمت أنهم سيسهرون معنا حول الراديو وأنها ستكون ليلة طيبةعامرة بالشباب والغناء .

* * *

أعـدو فيـمـا بينهم عـشاء من الشـواء وشـرابا من الـويسكى . . جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة . الليلة باردة ولكنها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتا وقالت زهرة : إن السماء صـافيـة وإنك تستطيع أن تعـد النجـوم . ودارت الكئـوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسـمة . عانى طلبة مرزوق وحده قلقا خفيا . قال لى قبل السهر بأيام : «سينقلب البنسيون جحيما» . إنه يخاف الأغراب ، ولم يشك فى أنهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علما ، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهى .

وكانت المدام كعادتها قد استخلصت منهـم المعلومات الخليقة بأن تشبع تطفلها الأبدى :

ـ مسيو سرحان البحيرى من أسرة البحيرى !

لم أمسع عن الأسرة من قبل ولا بد على طلبة مرزوق نفسه أنه سمع بها .

ـ وقد دله صديق على البنسيون لما علم بضيقة بشقته القديمة . .

وحسنى علام ؟

ـ مسيو حسنى من أرة علام بطنطا . .

وخيل إلى أن طلبة يعرفها ولكنه تجنب الحديث ما أمكنه .

ـ وهو يملك مائة فدان . .

قالتها بزهو كأنها هى المالكة .

ـ لم تزد ولم تنقص فالثورة لم تمسه . .

وتهلل وجهها كأنما النجاة كانت لها .

ـ وقد جاء الإسكندرية لينشىء لنفسه عملا . .

هنا سأله سرحان :

ـ ولم لا تزرع أرضك؟

فقال باقتضاب :

ـ مؤجرة .

فتفحصه سرحان بنظرة مداعبة ثم قال :

ـ قل إنك لم تزرع فى حياتك قيراطا . .

وضحك ثلاثتهم ولكن برزت ضحكة سحنى المجلجلة .

ثم أشارت المدام إلى منصور باهى وقالت :

ـ أما هذا فهو شقيق صديق قديم يعتبر من أحسن ضباط البوليس الذين عرفتهم الإسكندرية . .

خيل إلى أن أشداق طلبة قد ازدادت انتفاخا .

ـ وقد أشار عليه لدى نقله من الإسكندرية قريبا بالإقامة فى بنسيون ميرامار . .

مال طلبة نحوى منتهزا فرصة انشغالهم بالشراب وهمس :

ـ وقعنا فيوكر للجواسيس!

فهمست له بدورى :

ـ لقد ولت أيام الوحشية فلا تكن سخيفا .

وإذا بالسياسة تفرقع فى السمر . وبدا سرحان متحمسا بلا حدود :

ـ لقد خلق الريف خلقا جديدا . .

كان صوته يتغير تبعا لامتلائه بالطعام أو خلوه منه :

ـ كذلك العمال ، إنى أعيش بينهم فى الشركة فتعالوا وانظروا بأنفسكم .

وسأله منصور باهى ـ إنه أميلهم للصمت وقد ينفجر ضاحكا كأنه شخص آخر . .

ـ أتشتغل بالسياسة بالفعل؟

ـ من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ، واليوم فأنا عضو بلجنة العشرين وعضو مجلس الإدارة المنتخب عن الموظفين . .

ـ ألم تشتغل بالسياسة من قبل؟

ـ كلا . .

وقال حسنى علام :

ـ إنى مقتنع تماما بالثورة . لذلك أعتبر ثائرا على طبقتى التى جاءت الثورة لتصفيتها . .

فقال منصور باهى :

ـ على أى حال فالثورة لمتمسك .

ـ ليس ذاك هو السبب ، فحتى فقراء طبقتنا قد لا يحبون اثورة . .

وأخيرا قال منصور باهى :

ـ إنى مقتنع تماما بأن الثورة كانت أرفق بأعدائها مما يجب !

والظاهر أن طلبة مرزوق ظن أنه إن لزم الصمت فقد يضره الصمت ، لذلك قال :

ـ لقد حاق بى ضرر بالغ فأكون منافقا لو قلت إننى لم أتألم ، ولكننى أكون أنانيا كذلك لو أنكرت أن ما عمل هوما كان ينبغى أن يعمل . .

* * *

عندما آويت إلى حجرتى قبيل الفجر لحق بى فسألنى عن رأيى فيما قال فأجبته بصوت غريب بعد أن نزعت طاقم أسنانى :

ـ رائع . .

ـ أتظن أن أحدا صدقنى ؟

ـ لا يهم . .

ـ يحسن بى أن أبحث عن مقام آخر . .

ـ لا تكن سخيفا .

ـ كلما سمعت ثناء على إجراءات قتلى تعرضت لأزمة روماتزم !

ـ عليك أن تروض نفسك عليه .

ـ كما تفعل أنت؟ !

فقلت ضاحكا :

ـ إننا مختلفان منذ الأزل كما تعلم .

فمضى وهو يقول لى :

ـ أتمنى لك أحلاما مزعجة !

* * *

وقالت المدام ولم تكن تشارك فى الشراب وقنعت من الطعام بشريحة شواء وكوب حليب دافىء :

ـ عيب ثومة أنها تبدأ فى وقت متأخر !

ولكن الشبان نجحوا فى التغلب على آلام الانتظار . وفجأنى منصور باهى قائلا :

ـ إنى أعرف من تاريخك الشىء الكثير .

اجتاحنى فرح صبيانى كأنما رددت إلى فترة من فترات الشبابو فمضى يفسر قوله :

ـ راجعت الصحف القديمة مرات وأنا بصدد إعداد برنامج إذاعى . .

تطلعت إليه مستزيدا فى اهتمام فقال :

ـ تاريخ طويل حقا، أسهمت بقدر ملحوظ فى شتى تياراته، حزب الأمه، الحزب الوطنى، الوفد، الثورة. .

قبضت على الفرصة بجنون، مضيت به إلى رحلة فى رحاب التاريخ نوهت بمواقف لا يجوز أن تنسى، استعرضنا الز[زاب. حزب الأمة له وما عليه، والحزب الوطنى ما له وما عليه، والوفد وحلة للمتناقضات القديمة وقاعدته الشعبية من الطلبة والعمال والفلاحين لماذا جنحت بعد ذلك للاستقلال، ثم لماذا أيدت الثورة. .

ـ ولكنك لم تهتم بالمشكلة الاجتماعية الجوهرية؟

فقلت ضاحكا:

ـ لقد نشأت عهدا بالأزهر فلم يكم غريبا أن أعمل كمأذون شرعى رسالته فى الحياة أن يوفق بين الشرق والغرب فى الحلال!

ـ أليس غريبا أن تحمل على النقيضين معا، أعنى الرخوان والشيوعيين؟

ـ كلا، كانت فترة حيرة، ثم جاءت الثورة لتمتص خير ما فيهما معا.

ـ إئن فقد انتهت حيرتك؟

أجبت بالإيجاب. ثم تذكرت حيرتى الخاصة التى لا تحل بحزب أو ثورة فرددت فى نفسى الدعاء الذى لا يدرى به أحد.

وآن الأوان فدفعت بقاربى المضطرب إلى بحر الأنغام والطرب

نشدته أن يكون من الزعضاء المتنافرة المتناحرة جسما ينبض بالروح والانسجام. نشدته أن يعلمنى التوافق والتوازن فى بناء ترعاه عين الحب والسلام. أن يصهر عذاباتى فى نغمة تنعش القلب والعقل بجمال البصيرة. أن يسكب الشعد المصفى على عناد الوجود.

* * *

ألم تسمع بالخبر العجيب؟.. لقد اجتمع مجلس النظار أمس بعوامة منيرة المهدية..

* * *

ـ شبان ظرفاء وأغنياء!

هكذا جعلت تردد ماريانا. وقد زادت أعباء زهرة ولكنها حملتها بهمة عالية حقا. أما طلبة مرزوق فراح يقول:

ـ إنى لا أطمئن إلى أحد منهم.

فسألته ماريانا:

ـ ولا حسنى علام؟

فواصل حديثه قائلا:

ـ سرحان البحيرى أشدهم خطورة، لقد انتفع بالثورة إلى أقصى حد، ودعك من أسرة البحيرى التى لم يسمع بها أحد، ثم إن كل مولود فى البحيرة فهو بحيرى، حتى زهرة فهى زهرة البحيرى..

ضحكت كما ضحكت المدام. ومرت بنا زهرة فى طريقها إلى الخارج لأداء واجب من واجباتها، فرأيتها مطوقة الرأس بإشارب أزرق ابتاعته بنقودها، تخطر فى جاكتة المدام الرمادية، فاتنة من فاتنات الأعشاب الندية والزهور البرية. وعدت أقول:

ـ منصور باهى فتى ذكى، ما رأيك؟.. لا يحب الكلمات الجوفاء، ويخيل إلى أنه ممن يعملون فى صمت، ثم إنه من جيل الثورة الخالص..

ـ ما الذى يدعوه، هو أو غيره، إلى الالتصاق بالثورة؟

ـ إنك تتكلم كأنما لا يوجد بالوطن فلاحون ولا عمال ولا شبان!

ـ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم!

فقلت ساخرا:

ـ إنك تتكلم عن حرية بالية، وحتى هذه لم تحظ باحترامكم أيام سطوتكم..

* * *

وأنا خارج من الحمام رأيت فى الطرقة شبحين، زهرة وسرحان البحيرى. فى مهامسة أو مناجاة. لعله أراد أن يدارى موقفه فرقع صوته متحدثا فى بعض الشئون التى تعد الفتاة مسئولة عنها. مضيت إلى حجرتى كأنما لا أرى ولا أسمع ولكن اجتاحنى القلق. كيف تحافظ زهرة على راحة بالها فى خلية غاصة

بالشبان؟ . وعندما جاءتنى بقهوة العصر سألتها :

ـ أين تقضين عطلتك الأسبوعية مساد الزحد؟

أجابت بانتهاج :

ـ فى السينما .

ـ وحدك؟

ـ مع المدام .

قلت من قلب محب :

ـ فليحفظك الله . .

ابتسمت قائلة :

ـ إنك تخاف علىّ كما لو كنت طفلة .

ـ وإنك لطفلة يا زهرة .

ـ كلا ، تجدنى فى وقت الشدة كالرجال .

قربت وجهى من وجهها الجميل المحبوب وقلت :

ـ زهرة . هؤلاء الشبان لا يعرفون للهو حدودا ، أما عند الجد . .

وفرقعت بأصابعى ، ولكنها قالت :

ـ حدثنى أبى عن كل شىء . .

ـ إنى فى الواقع أحبك وأخاف عليك .

ـ أنا فاهمة ، لم أعرف رجلا مثلك منذ أبى ، وأنا أحبك أيضا .

لم أسمع بكلمة الحب من قبل بهذه النعومة الرائقة . وكان من الجائز أن تخاطبنى بها عشرات الأفواه البريئة لولا تهمة ألقبيت بغباء ، تهمة لا يمكن أن يقضى فيها أحد من الناس .

* * *

البرقع الأبيض .

خرجت العجود من الباب إلى الحارة وهى تقول :

ـ هلمى قد كف المطر .

تبعتها صاحبة البرقع الأبيض تمشى فى حذر على أرض زلفة متجنبة نقرة مملوءة بماء المطر . عفى الزمان على ذكريات جمالها إلا الأثر تنحيت جانبا وأا أردد فى نفسى سبحان الخلاق ذو النعم . واهتز الفؤاد من أعماقه فقلت أتوكل على الله وخبر البر عاجله .

* * *

فى المدخل وحدنا وقد جلست تحت العذراء تعكس عيناها الزرقاوان نظرة مثقلة بالفكر . وكان المطر يهطل بلا توقف منذ الظهر والسحب تنتابها نوبات رعدية متفجرة . قالت المدام :

ـ مسيو عامر ، إنى أشم رائحة غريبة !

رمقتها بحذر فقالت باستياء :

ـ زهرة !

ثم بعد وقفة قصيرة :

ـ وسرحان البحيرى !

انقبض صدرى ولكننى تساءلت بسذاجة :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنت تفهم تماما ما أعنى . .

ـ ولكن الفتاة . .

ـ قلبى لا يخوننى فى هذه الزور !

ـ البنتط يبة وشريفة يا عزيزتى ماريانا .

ـ مهما يكن من أمرها فإنى لا أحب أن يلعب أحد من وراء ظهرى !

إما أن تبقى زهرة شريفة وإنا أن تعمل لحسابك . إنى أفهمك تماما أيتها العجوز .

* * *

حلمت ـ وأنا مستغرق فى القيلولة ـ بالمظاهر الدامية التى اقتحم الإنجليز على أثرها ساحة الأزهر ، وفتحت عينى وأصوات المتظاهرين وطلقات الرصاص تدوى فى رأسى . كلا إنها أصوات من نوع آخر تجتاح النسيون خارج حجرتى . ارتديت الروب وغادرت الحجرة وأنا فى حال استطلاع مثلى زا سرحان البحيرى كفان ثائرا متسخطا وهو يسوى الكرافتة وياقة القميص ، كذلك

زهرة كانت مصفرة الوجه من الغضب وقد تمزقت طاقة فستانها وراح صدرها يعلو وينخفض، على حين مضى حسنى علام إلى الخارج بالروب آخذا معه امرأة غريبة وهى تصرخ وتسب وقد بصقت فى وجه سرحان البحيرى قبل أن يغيبها الباب. وصاحت المدام:

ـ لا يجوز هذا فى بنسيون محترم..

وجعلت تردد بحدة «لا.. لا.. لا».

ثم خلا المدخل إلا من ثلاثتنا أنا وهى وطلبة مرزوق. سألت ولما زفق من النوم تماما:

ـ ماذا حدث؟

فأجابنى طلبة مرزوق:

ـ لم أر أكثر مما رأيت إلا القليل..

وذهبت المدام إلى حجرة سرحان للاستماع فيما بدا أما طلبة فواصل الحديث قائلا:

ـ يبدو أن صاحبنا البحيرى دون جوان عتيد!

ـ ما الذى حملك على هذا لاظن؟

ـ ألم تر إلى المرأة وهى تبصق عليه؟

ـ ولكن من المرأة الغريبة؟

ـ امرأة، أى امرأة!

ثم وهو يضحك :

ـ امرأة جاءت تسعى وراء رجلها الهاجر !

وجاءت زهرة وهى ما زالت منفعلة فمضت تقول دون سؤال من أحد :

ـ فتحت الاب للأستاذ سرحان وإذا بامرأة تتبعه وهو لا يدرى ثم اشتبكا فى عراك حام .

ورجعت المدام فقالت وهى واقفة :

ـ الفتاة كانت خطيبته ، زو هذا ما فهمته . .

وضح كل شىء فيما أعتقد غير أن طلبة مرزوق سأل بخبث :

ـ وما دخل زهرة فى الموضوع؟

فأجابت زهرة :

ـ أردت أن أخلص بينهما فتحولت إلىّ ثم كان ما كان!

فقال الرجل :

ـ إنك ملاكمة جبارة يا زهرة!

فقلت برجاء :

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا من فضلكم . .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم* تلك آيات الكتاب المبين* نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون* إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذَّبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين* ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الزرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين* ﴾

سمعت يدا تنقر على الباب مستأذنة فى الدخول. دخلت المدام باسمة ثم جلست أمامى على مقعد بلا ظهر أطرح عليه ساقى أحيانا. ثمة زوبعة كانت تعوى فى المنور وأنا مدثر بالروب، والحجرة نعسانة فى جوها شبه المظلم الذى لا يدل على وقت. قالت وهى تغالب ضحكة:

ـ إليك نبأ عجيبا . .

أغلقت الكتاب ووضعته على الكوميدينو وأنا أغمغم:

ـ ليكن سارا يا عزيزتى . .

ـ زهرة قررت أن تتعلم . .

نظرت إليها ببلاهة ولم أفهم شيئا.

ـ حقا قررت أن تتعلم، قالت لى إنها ستغيب ساعة كل يوم لتتلقى درسا . .

قلت:

ـ هذا مذهل حقا . .

ـ عندنا فى العمارة بالدور الخامس أسرة فيها ابنة مدرسة اتفقت معها . .

ـ أكرر أنه قرار مذهل حقا!

ـ من جانبى لم أعارضها وإن أشفقت عليأجرتها التى ستستولى عليها المدرسة . .

ـ جميل منك هذا يا مدام ولكنى مذهول بكل معنى الكلمة!

ولما جاءتنى زهرة بقهوة العصر قلت لها :

ـ تخفين عنى أسرارك يا ماكرة!

قالت بحياء :

ـ لا أسرار تخفى عليك .

ـ وقرارك عن التعليم؟ . . خبرينى كيف فكرت فى ذلك؟

ـ كل البنات تتعلم ، إنهم يملأن الشوارع . .

ـ ولكنك لم تفكرى فى ذلك من قبل . .

ضحكت بسرور فقلت :

ـ إنك قلت لنفسك إنك أجمل منهن فلم يتعلمن ولا تتعلمين . . هه؟

جعلت تنظر إلىّ بابتهاج دون أن تنبس فقلت :

ـ ولكن ليس ذاك بكل شئ . .

ـ ماذا هناك أيضا؟

ترددت لحظة ثم قلت :

ـ هناك صاحبنا سرحان البحيرى . .

تورد وجهها وغضت البصر فقلت بإشفاق :

ـ أما التعليم ففكرة مدهشة وأما سرحان . .

ترددت فى الإفصاح فتساءلت :

ـ ماله؟

ـ هؤلاء الشبان طموحون!

قالت بامتعاض :

ـ كلنا أبناء حواء وآدم . .

هذا حق ولكن . .

ـ الدنيا تغيرت ، أليس كذلك؟

ـ الدنيا تغيرت ولكنهم لم يتغيروا بعد . .

امتلأت نظرتها بالتفكير وهى تقول :

ـ بعد الكتابة والقراءة سأتعلم مهنة كالخياطة .

خفت إن تكلمت أكثر أن أجرح مشاعرها فسألتها :

ـ هل يحبك حقا؟

ـ فأحنت رأسها بالإيجاب فقلت :

ـ ليحفظك الله ويسعدك .

ورحت أساعدها من حين لآخر وهى تدق باب المجهول، عالم الكلمات والزعداد. وعلم الجميع بقرارها وناقشوه طويلا ولكن لم يسخر منها أحد. على الأقل أمامها. كان الجميع يميلون إليها فيما أعتقد. كل على طريقته. وتابع طلبة مرزوق القضية فلم يخف عليه شيءمن أسرارها، ثم قال لى:

ـ ما هو الحل السعيد لمشكلة زهرة؟ . . أن ينزل عندنا يوما متج سينمائى. ما رأيك؟

فلعنت رأيه.

* * *

وذات أصيل ذهبت كالعادة إلى مجلسى بالمدخل فرأيت زهرة جالسة إلى جانب فتاة غريبة على الكنبة. من لحة أدركت أنها المدرسة. فتاة ريفية وجميلة. وقد تكرمت بالحضور إليها بسبب وجود زوار فى شقتها. وكالعادة كانت المدام قد استجوبتها وعرفت عنها بعض ما تتطلع إليه فأخبرت بأنها تقيم مع والديها وأن لها أخا يعمل فى السعودية. وتكرر حضور المدرسة للبنسيون، وكانت تثنى على اجتهاد تلميذتها.

ولاحظت مرة ـ وزهرة قادمة بقهوة العصر ـ أنها متجهمة فسألتها عن الصحة فأجابتنى بفتور:

ـ كالبغل!

ـ والدروس؟

ـ لا شكوى من هذه الناحية .

فقلت بقلق :

ـ لم يبق إلا صديقنا البحيرى !

وصمتنا بعض الوقت كأنما لنصغى إلى صوت المطر المنهمر ، ثم قلت :

ـ لا أطيق أن أراك متألمة .

فقالت بامتنان :

ـ إنى أصدقك .

ـ ماذا حدث؟

ـ الحظ يعاندنى .

ـ قلت لك من أول يوم . .

ـ ليس الأمر بالسهولة التى تتصورها !

ثم نظرت إلىّ بكآبة وقالت بانفعال :

ـ ما العمل؟ إنى أحبه ، ما العمل؟

ـ هل تبين لك كذبه؟

ـ كلا ، إنه يحبنى أيضا ، ولكنه يتكلم دائما عن العقبات .

ـ لكن الرجل إذا أحب .

فقالت بإصرار :